عظة في أحد الكنعانية

الأب فيليب لوماسترز
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

جميعنا مررنا بتجربة التجاهل والاستبعاد ما جعلنا نشعر بأن الآخرين لم يضمّونا أو يعترفوا بنا. سواء في المدرسة أو بين الأصدقاء أو في العمل أو في أي مكان، هذا يمكن أن يكون مؤلمًا، بغض النظر عن عمرنا أو ظروف حياتنا. ما من أحد يحبّ أن يُرفَضَ أو يتم تجاهله. لكن في بعض الأحيان، ما يبدو رفضًا لا يكون كذلك في الحقيقة؛ إنه يكون في بعض الأحيان اختباراً وإعداداً لعلاقة أكثر عمقاً نتعلم من خلالها المزيد عن أنفسنا، وعن إخوتنا، وعن الله.

حوار ربّنا مع المرأة الكنعانية كان من هذا النوع. إنها من الأمم ولها ابنة ممسوسة بالشيطان، وربما كانت نهايتها قريبة. لذلك راحت تنادي المسيح قائلة: "ارحمني يا رب يا ابن داود!" لكنه لا يجيبها، بل يقول لتلاميذه إنه أُرسِل فقط إلى خراف بيت إسرائيل الضالة، أي اليهود. وإذ أصرّت المرأة في استغاثتها، قال لها: ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويُطرَح للكلاب. بمعنى آخر، بركات الله هي لشعب العهد القديم المختار، أي اليهود، وليس للأمم. لا تعارض المرأة هذا الجواب، بل تقول: «حتى الكلاب تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها». عندها امتدح المسيح إيمان المرأة وشُفيَت ابنتها.

قد نجد صعوبةً في فهم هذا المقطع. لماذا لم يشفِ الربُّ ابنتَها على الفور؟ لماذا يبدو وكأنه يستبعد الأمم من خلاصه؟ لماذا يسميها كلبة؟

للإجابة على هذه الأسئلة، علينا أن نتذكر أن اليهود في ذلك الوقت كانوا بالمُجمَل يعتقدون أن مسيحَهم لهم فقط، وأن بركات الله هي لليهود دون بقية العالم. تعرف هذه المرأة الأممية ما يكفي عن المسيح لتدعوه "ابن داود"، وهو مصطلح يهودي يشير إلى المسيح، وتعرف أنه شافٍ. ولكن عندما تبدأ محادثتها مع الرب، لم يكن نوع إيمانها به واضحاً. ومع ذلك، اتضح تماماً في نهاية المحادثة أن إيمانها به يفوق إيمان معظم اليهود والتلاميذ. ذاك لأنها تعلم أن بركات الله في يسوع المسيح تتسع لكل مَن يؤمن به، وأنه به (المسيح) يفيض فتات مائدة إبراهيم ليطعِم ويبارِكَ العالم كله.

إن استبعاد الرب للأمم من خدمته ظاهرياً هو أداة تعليمية لمساعدة المرأة والتلاميذ على رؤية حقيقة خلاص الله وبركاته. هي لم تنكر أن اليهود، في رواية العهد القديم، هم الشعب المختار، أبناء الله. هي لم ترفض أن تُدعى إحدى الكلاب، إحدى الأمم النجسة؛ ولا بد أنها كانت تعرف أن هذه هي طريقة تفكير اليهود بها وبمَن هم مثلها. لكنها عرفت رسالة الكتاب المقدس أفضل من اليهود، لأن الله قال لإبراهيم أنه من خلاله ومن خلال عائلته ستتبارك جميع أمم العالم؛ وتصوّر الأنبياء العبرانيون اليوم الذي ستأتي فيه جميع الأمم إلى جبل الرب. والآن في يسوع المسيح، أصبح اليهود والأمم على حد سواء أبناءً محبوبين يشتركون بالكامل في بركات الله.

إن التأخير الواضح لمخلصنا في شفاء ابنتها هو أيضًا أداة تعليمية مصمَّمة لتقوية إيمانها، ولإيصال إيمانها به إلى مرحلة النضج. قد نكون جميعنا تعلمنا دروسًا مهمة من خلال الصبر، ومن خلال الاضطرار إلى المثابرة في الحصول على ما نريد. وينطبق الشيء نفسه على هذه المرأة. إن بصيرتها الأخيرة في هذه المحادثة هي مثل رؤية القديس سمعان عندما قُدِّم المسيح ذو الأربعين يومًا إلى الهيكل: "الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام. لأن عيني قد أبصرتا خلاصك الذي أعددتَه أمام وجه كل الشعوب، نورًا لاستعلان الأمم ومجدًا لشعبك إسرائيل». لقد اكتملت حياة سمعان في الصبر في انتظار المسيح عندما حمل الطفل يسوع بين ذراعيه في هيكل أورشليم. لقد أتى أخيراً مسيح الله، المخلّص. وهذه بشرى سارة لليهود والأمم وللعالم أجمع. وقد كوفئ صبرُ المرأة الكنعانية والقديس سمعان، إذ اقتبل كلاهما المسيح بالإيمان.

الكثيرون منا معجبون بالمعلمين والمدربين والأهل، أو غيرهم من المرشدين والمعلمين الذين اختبرونا، والـذين لم يجعلـوا الأمر سـهلاً لأننا كنا ننمـو من خلال توجيهـاتهم الصـارمة وتوقعـاتهم العالية. لقـد أصبحنا أشخاصًا أقـوى وأكـثر نضـجًا وقـدرة وثقـة من خلال التغلب على التحـديات الـتي ربما بدت في البداية وكأنه لا يمكن التغلب عليها. وينطبق الأمر نفسه على علاقة هذه المرأة بيسوع المسيح. لقد تحدّاها لكي يرى بوضوح أين تقف أمامه. لو كانت ممتلئة بالزهو، لكانت ابتعدت. لو كانت غير صبورة أو غير صادقة، لكانت غادرت. لكنها عرفت أنها وجدت في هذا الرجل خلاص الله لابنتها، ولم تدَعْ شيئًا يثنيها. لقد رفضت أن تُجرّد منه.

هـذه المـرأة الكنعانية هي نمـوذج رائـع لنا كمسـيحيين، لأننا نتخلى بسـهولة عن الـرب وعن أنفسـنا. نحن نميل إلى الاعتقـاد بأننا مـا نحن عليه، وأنـه لا فائـدة من محاولـة التغيير، وأنـه حـتى الله لا يسـتطيع أن يشـفينا ويحوّلنا. من المؤكـد أنـه لـو بقيت هـذه المـرأة الأممية في المـنزل في ذلـك اليـوم ولم تُثِر الفوضى حول شفاء المسيح لابنتها، لكان ذلك أقل إرهاقاً لها. كان بإمكانها أن تقول: "أنا من الأمم وهذا المسيح يهودي. لماذا قد أطلب منه المساعدة؟" ولكن عندها كانت ستبقى حياتها وحياة ابنتها بائستين وبدون بركة الرب.

ينطبـق الأمر ذاتـه علينا. يمكننا أن نفـترض أننا مثل الأمم القديمـة، مقطوعـون عن الخلاص، وعن بركـة الله وتغييره في حياتنا بسبب إخفاقاتنا وضـعفنا ومختلـف الأخطـاء الـتي ارتكبناهـا في الحياة. نعم، لقـد أخطأنـا جميعًا ضـد الله والقـريب بالفكر والقـول والفعـل. نعم، قـد نجـد الأمر أقـل إرهاقًا إذا استسـلمنا ببسـاطةٍ لخطايانا المعتادة وأهوائنا التي كانت معنا لفترة طويلة حتى أصبحت طبيعتنا الثانية. ولكن إذا قبلنا الكذبة القائلـة بأن الحياة الجديدة في المسـيح ليسـت في الحقيقـة لنا، وأنَّ خطايانـا تحـددنا، وأننا أفضل حالًا بمجرد قبول ما نحن عليه بدلاً من النمو إلى قامة المسيح الكاملة، فسوف ننتهي إلى اختيار البؤس على الفرح، والموت على الحياة، واليأس على الرجاء.

تعلمت هـذه المـرأة أنهـا هي أيضًا مـدعوة لتكـون هيكلاً لله الحي. امتدت وعـود الله إليهـا أيضًا، وينطبـق الأمر نفسـه علينا. لا شيء يمكن أن يفصـلنا عن محبة الله الـتي في المسـيح يسـوع ربنا، إلا رفضـنا قبـول محبته، رفضنا أن نفتح حياتنا له كما فعلت هذه المرأة بالتواضع والإيمان والمثابرة.

لقـد كان بإمكانهـا أن تبتعـد عن الـرب على أسـاس هويتهـا كأممية. كان من الممكن أن يكـون ذلـك عـذرًا سهلاً، لكنها أصرّت على الاقتراب رغم ذلك. لم تختَر الخروج السهل، بل هي ثابرت في فتح حياتها له بما يتجاوز ما كان يتوقعه أي شخص في ذلك الزمان والمكان.

وعلينا جميعًا أن نتبع مثالها في حياتنا. بالصبر والتواضع والمثابرة، يجب علينا أن نطلب رحمة المسيح لنحصل على شفائه وتغييره. يجب ألا نُصاب بالشلل بسبب الشعور بالذنب أو العار، بغضّ النظر عمّا فعلناه في أي مرحلـة من حياتنا. يجب أن نـرفض الانشـغال بمخاوفنا، وأن نـرفض إغـراء اتخـاذ الطريـق السهل من خلال اختلاق الأعذار. وبعد ذلك، مثلَها، سوف ندرك أن خلاص الله هو لنا بالحقيقة، وأنه لا حـدود لحضـوره في حياتنا سـوى تلـك الـتي نضـعها بخطايانـا وعـدم إيماننا. فلنرفض، مثلَهـا، أن يغلبنا الخوف، وبدلًا من ذلك فلنرمِ أنفسنا تحت رحمة المسيح بشجاعة وصبر وتصميم. لأن هذا وحده هو الطريق إلى ملكوت الله.

Source: Fr. Philip LeMasters. Eastern Christian Insights. 10/1/2017. Pravoslavie. https://orthochristian.com/106706.html